أثـــر الســـنة النبويـــة
فـــى بنـــاء الحيـــاة الســـياســـية الاســـلاميـــة

بقلم:
علي محمد*

Abstract

The moulding and understanding Islamic politic are directly related to the teaching of Islam, that is, based on the faith, Islamic Law, and Islam as a complete way of life. Islamic politics can been seen as the yardstick for the Muslim's understanding in all aspects of life, guided by God, and as taught by the Quran and al-Sunnah. Therefore, the influence of al-sunnah and its contribution in understanding Islamic politics can be seen in the activities practice by the prophet Muhammad (PBUH) in every aspects of life of the ummah.

المقـــدمـــة

كانت الحياة السياسية الاسلامية ترتبط ارتباطا وثيقا بالدين الاسلامى نفسه, من حيث أنه عقيدة وشريعة ونظام متكامل للحياة: أى أن الاسلام دين ودنيا أو بلغة سياسية عصرية هو دين ودولة. ومن ثم فان السياسة الاسلامية تكون بمثـــابة معالم الحياة للامة الاسلامية فى جوانبها المختلفة من اجتماعية وسياسية واقتصادية وحربية وغيرها, وهى القائمةعلى التعاليم الالهية والتوجيهات النبوية التى جاءت من خلال القران والسنة الشريفة.

ولما كان بحثنا مداره الجانب السياسى وأثر السنة النبوية فيه, فسيكون الاهتمام منصبا على الادوار والانشطة التى قامت بها السنة الشريفة فى هذا

* الدكتور علي بن محمد, الأستاذ المساعد في قسم التاريخ والحضارة الإسلامية, بأكاديمية الدراسات الإسلامية, جامعة ملايا بكوالا لمبور

المجال السياسى الاسلامى. والمعروف أن مهمة الرسول (ص) هى تطبيق لما جاء به القران, فلا بد من معرفة المبادئ السياسية من هذين المنبعين العظيمين – القران والسنة – وذلك لان الفكر الاسلامى فى جميع جوانبه يمتاز بربط المبادئ التشريعية والقواعد التنظيمية بالمفاهيم الاخلاقية والقيم الروحية, بحيث يكون التعاون والتكامل قائمين بين الجوانب المادية والمعنوية, العقلية والوجدانية, الواقعية والمثالية.

وحقا أن ما جاء فى القران وتطبيق الرسول (ص) له سواء فى مكة أم فى المدينة كان لارساء قواعد العقيدة, مندرجا منها وعلى أساسها الى تحديد الاطار الذى يلتزم به الانسان, فى علاقته بنفسه وبالاخرين من خلال تنظيم محكم دقيق لحياة الانسان فى جماعته, اذ أن الدعوة الاسلامية تمتاز بارتباط الدين بالدولة ارتباطا وثيقا كارتباط القاعدة بالبناء. فالدين أساس الدولة وموجهها, ولا يمكن تصور دولة اسلامية بلا دين, كما لا يمكن تصور الدين الاسلامى فارغا من توجيه المجتمع وسياسة الدولة لانه حينئذ لا يكون اسلاما, لان أسس الدولة الاسلامية تقوم على تشريعات ومقررات الهية عامة, وقواعد كلية الى جانب مجموعة من المبادئ العامة لتنظيم السلوك البشرى العام فى الحياة الدنيا, أملا بالسعادة فى الحياة الاخرة وهدايته الى الخير والجمال, ويحقق السلام والرخاء للجنس البشرى كله.[2]

وعلى هذا الاســـاس من التصور الاسلامى للسياسة الاسلامية, استطاع الرسول (ص) أن يقيم الجماعة الاسلامية الاولى فى التاريخ, وقد ربط الرسول (ص) بين أفراد هذه الجماعة من المسلمين بالرباط الدينى الذى يقوم مقام رابطة الاسرة والدم والعصبية. وعلى هذه الصورة أصبح الاسلام نظاما سياسيا بقدر ما هو نظام دينى فى الوقت نفسه, غير أن العصر الاول ينقسم الى مرحلتين متميزتين تاريخيا: المرحلة المكية, والمرحلة المدنية.

ففى المرحلة الاولى التى قضاها الرسول (ص) فى مكة منذ بعثته الى أن

[2] الشيخ محمود شلتوت, من توجيهات الاسلام, ص. 50– 55بتصرف.

هاجر الى المدينة, عنى التشريع القرانى والنبوى أولا باصلاح العقيدة وتخليصها من شوائب الوثنية وافات النفوس. وكان طبيعيا ألا تشكل جماعة المسلمين فى هذه المرحلة مجتمعا سياسيا, وألا يكون لهم أى تنظيم سياسى. ولذلك فلم يأمر القران فى مكة بقتال المشركين, وانما أمر بالصبر والعفو والصفح الجميل, و لم يأت الاذن بالقتال الا أواخر أيامهم فى مكة قبيل الهجرة.[3]

وأما فى المرحلة الثانية وهى ما بعد الهجرة الى المدينة فقد تمكن الرسول (ص) من تكوين المجتمع الاسلامى الاول فيها, وتمكن من بناء السلطة السياسية واستطاع أن يقيم دولة اختار لها شكلا يرتكز على نظام سياسى مستمد من القران والسنة فيها, حيث ارتضى الله تعالى للعالمين الاسلام دينا: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا."[4]

ومن الواضح أن قيام الدولة الاسلامية الاولى فى المدينة التى أسسها الرسول (ص) لم تكن بطريق المصادفة, ولا كان ميلادها فجأة غير مسبوق بأحداث تمهد له وتهئ لظهوره. وعلى ذلك فان هذه الدراسة عن تاريخ الحياة السياسية الاسلامية, هى مقدمة لازمة لدراسة قيام الدولة الاسلامية الاولى فى تاريخ الانسانية, باعتبارها صورة تاريخية من صور المجتمع السياسى. ومن ثم سوف تنقسم هذه الدراسة الى قسمين اثنين, نخصص أولا لبداية الفكرة السياسية وقيام الدولة الاسلامية الاولى فى التاريخ, وثانيا لهداية السنة النبوية فى تطبيق الانظمة السياسة الاسلامية.

أولا: بدايـة الفكـرة السـياسية وقيـام الدولـة الاسـلامية.

ان الفكرة السياسية وقيام الدولة الاسلامية هى من القضايا الهامة التى لا يمكن أن تتجرد بتاتا عن مساهمة السنة الشريفة فيها, وذلك لآن الرسول

---

[3] الشيخ محمد مصطفى شلبى, المدخل فى التعريف بالفقه الاسلامى, ص. 60- 65, ومحمد الحيدر ابادى, مجموعة الوثائق السياسية, ص. 33بتصرف.

[4] سورة المائدة, 120الاية: 3.

(ص) كان داعيا الى الدين الجديد الذى أمر أن يبشر به فى الناس منذ البداية, وهو يسعى دائما لجمع الناس عليه تمهيدا لما سوف يحدث فيما بعد من انتشار هذا الدين واستقراره.

وعلى هذا فقد تجمعت حول الرسول (ص) طلائع المؤمنين الذين امنوا به, وجمع بينهم شعور قلبى واحد لا يمكن وصفه بالتطلع الى هدف مشترك يرقبه الجميع ويسعى اليه. هذا الهدف هو: أن تكون لديهم أرض يمكن أن تمارس عليها قيادتهم أى نوع من السيادة حتى يمكن لهم أن يقيموا فوقها دولة أو حكومة, تطبق تعاليم الشريعة التى ينزل بها الوحى من الله تعالى.

فلا ريب فى أن الوحى القرانى وتعاليم الرسول (ص) قد افتتحا أفقا سياسيا جديدا ومستمرا, ولهذا كانت التجربة التأسيسية للمدينة, وذلك لآن التبشير الدينى قد وجد فى المدينة تجسيداته السياسية الآولى. وقد كان الرسول (ص) يجمع فى شخصه هيبة رسول الله الذى يبلغ الوحى, وسيادة القائد الذى يحسم المناقشات ويقود جماعة المؤمنين, ثم سلطة اتخاذ القرار فيما يخص الصراعات الناشبة ومخططات الهيمنة الكائنة بين المؤمنين والكفار.

وتعد الدولة الاسلامية الآولى – فى المدينة – أقدم صورة معروفة الى اليوم فى تاريخ الانسانية للدولة, باعتبارها صورة تاريخية من صور المجتمع السياسى. وذلك بفضل تميزها عن غيرها من المجتمعات السياسية التى سبقتها فى الوجود فى قيمها ومبادئها الآساسية, أو التى كانـــت معاصرة لها بتقرير مبـــدأ الشريعة أو خضوع الدولة للقانون.

(ا) الظهـــور الآول للاتجـــاه الســـياسى الاســـلامى.

كان الاتجاه السياسى الاسلامى قد بدأ مع بداية الدعوة الاسلامية فى مجتمع مكة المكرمة نفسها, الا أن هذا الاتجاه لم يظهر بوضوح فى المرحلة المكية لآن المسلمين فى هذه المرحلة لم يكونوا أمة منفصلة عن بقية الناس فى المجتمع المكى فى مجموعه, و لم تكن لهم أرض يمكن أن تمارس عليها قيادتهم

نوعا من السيادة لاقامة الحكومة التى تطبق شريعة الله, وذلك بالاضافة الى ظروف المسلمين الصعبة فى مواجهة أذى الآعداء وبغيهم على المسلمين.

فلا شك أن الرسول (ص) حين بعثه الله تعالى برسالة الاسلام جاء ليخرج الناس من الظلمات الى النور, وكانت حقيقة دعوته الاسلامية تعتمد على اثبات عقيدتها التى من أبرزها بيان حقيقة الخلق والخالق, وتأكيد عقيدة االتوحيد, والتذكير بيوم البعث والحساب, وأن الآمر مرجعه كله لله الواحد القهار. ولقد كانت العقيدة الاسلامية هذه: " هو الآساس الآول الذى مكن من قيام دولة المدينة, وذلك لآن الدين الجديد بما جاء فيه وحد المؤمنين وجعلهم صفا واحدا كالبنيان المرصوص, وجعل فكرهم خالصا لله وحده وعدم الاشتراك به, حيث أن الدين هو الاعتقاد فى موجود أعلى, والسلوك بناء على هذا الاعتقاد."[5]

والحق أن روح الدين التى تتجه الى الايمان بالوحدة الالهية انطوت على معنى عميق, هو ضرورة قيام الجماعة الاسلامية التى تعبد الله الواحد على أساس من الوحدة الفعلية والاتحاد التام بين عناصر الآمة الاسلامية التى هى أمة واحدة بتكافلها وتضامنها, كالبناء العضوى الذى تتازر فيه الافعال وتتكامل مثل الجسد وأعضائه. ولهذا فان عقيدة التوحيد الاسلامى كانت ذا تأثير كبير فى قيام الآمة الاسلامية وتحديد كيانها الاجتماعى والسياسى والاقتصادى على أساس من محبة الله واشاعة العدل بين الناس.

والى جانب جهود الرسول (ص) فى نشر دعوته سرا كان أم جهرا فى مكة المكرمة لاثبات العقيدة الاسلامية فى نفوس الناس, فهناك أعمال أخرى كثيرة قام بها الرسول عليه الصلاة والسلام حيث يبدو فيها واضحا هذا الاتجاه السياسى, والذى كان يهدف منه الى منح استقلال المسلمين وتمكينهم من العمل لنشر الدين الاسلامى الجديد والدفاع عنه. ومن أهم مظاهر تلك

---

[5] الدكتور محمد كمال جعفر, فى الدين المقارن, ص. 19.

الاعمال السياسية التى قام بها الرسول (ص) والتى تجدر بالذكر هنا هـــى:

1. الآمـــر بالهجـــرة الى الحبشـــة:

بعد أن اشتد ايذاء كفار قريش للمسلمين فى مكة المكرمة, و لم يكن لرسول الله (ص) من السلطان أو القوة فى قريش ما يمكن به دفع الآذى عمن امنوا به, بدأ يفكر فى بلدة أخرى يرسل اليها المسلمين المستضعفين حتى يبتعدوا عن ذلك الآذى. وقد اختار أرض الحبشة وأمرهم بالهجرة اليها حيث قال لهم: "لو خرجتم الى أرض الحبشة, فان فيها ملكا لا يظلم عنده أحد, وهى أرض صدق, حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه."[6]

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله (ص) الى أرض الحبشة, مخافة الفتنة, وفرارا الى الله بدينهم. فكانت أول هجرة فى الاسلام, وقد حدثت فى السنة الخامسة للدعوة الاسلامية التى توافق عام 516 ميلاديا, ثم حدثت الهجرة الثانية الى الحبشة بعد أشهر قلائل من نفس العام.[7]

ولا شك أن رواد هذه الهجرة – الآولى والثانية – الى الحبشة حنكة سياسية, وأنها لم تكن الا اجراء وقتيا قصد به مجرد حماية الآفراد المسلمين من أذى قريش وبغيها, الذين لم يكن الرسول (ص) قادرا على منعهم منه. وقد أدركت قريش أبعاد هذه الهجرة وما فيها من اعداد للمستقبل وتربص بها, تمثل فى حرص الرسول (ص) على الاحتفاظ بقوة المسلمين بابعادهم عن موطن الفتنة والبلاء الذى أنزلته بهم قريش.

ومن ثم أرسلت قريش الى النجاشى ملك الحبشة حينئذ تطلب منه عودة هؤلاء المسلمين الى قومهم باعتبارهم: "فارقوا دين قومهم ..... وجاءوا بدين ابتدعوه .... ".[8] وكأن قريشا فى ذلك أرادت أن توهم ذلك الملك أن ما فعله أولئك المسلمون المهاجرون الى بلاده جريمة فى عرف قومهم

---

[6] ابن هشام, السيرة النبوية, طبع بيروت, سنة 1411ه\ 1991ه, جزء 2, ص. 164.
[7] المرجع السابق نفسه بتصرف.
[8] ابن هشام, المرجع السابق, ص. 77.

أرادوا بهجرتهم التخلص من تبعاتها. ولكن ملك الحبشة أبى أن يرد هؤلاء المسلمين الى قريش, فبقوا بها حتى هاجر الرسول (ص) الى المدينة فلحق به أهل الهجرة الثانية, وأما أهل الهجرة الآولى فقد رجعوا بارادتهم الى مكة المكرمة.

2. تغييـر خطـة الدعـوة الاسـلامية:

كان الرسول (ص) - كما عرفنا - قد بذل ما وسعه من الجهد لدى قبائل مختلفة من القبائل العربية, لتساعده أو تدافع عنه حتى يبلغ رسالة ربه. فبعد وفاة زوجته خديجة وعمه أبى طالب وانتهاء مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى عبد المطلب, فكرالرسول عليه الصلاة والسلام فى أن يغير خطة دعوته الاسلامية, حتى يكسب لها أنصارا جددا يقدمون له العون والمساعدة.

فمن ذلك أنه قد خرج الرسول (ص) الى الطائف ومعه زيد بن حارثة, "يلتمس النصرة من ثقيف, والمنعة بهم من قومه, ورجائهم أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ... ".[9] ولكن لم يستجب له أحد, بل طلبوا منه الرحيل من بلدهم بينما سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ويقذفونه بالحجارة, وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه حتى شج رأسه, فعاد النبى محزونا الى مكة.[10]

وبعد هذا الفشل لم ييأس الرسول (ص) بل واصل كفاحه فى الدعوة, وذلك ما فعله عليه الصلاة والسلام فى المواسم - مواسم الحج - بمكة المكرمة, "فكان رسول الله (ص) يعرض نفسه فى المواسم - اذ كانت - على قبائل العرب يدعوهم الى الله, ويخبرهم أنه نبى مرسل, ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به."[11]

---

[9] ابن هشام, المرجع السابق, ص. 266.

[10] المرجع السابق, طبع القاهرة, سنة 1356ه, جزء 1, ص. 421 - 422. وابن كثير الدمشقى, تاريخ الرسل والملوك, جزء 2, ص. 151.

[11] ابن هشام, المرجع السابق, ص. 270, وقد ذكر ابن هشام أسماء القبائل التى عرض عليها رسول الله ذلك, ص. 271 - 274.

وليس لطلب المساعدة أو النصرة والمنعة من معنى الا محاولة الرسول (ص) ايجاد منطلقات امنة للدعوة الاسلامية, وأهم هذه المنطلقات الآرض التى يكون السلطان السياسى فيها للمسلمين - أو بعبارة أخرى - الآرض التى يقيـــم عليها المسلمون دولتهم, فيتفرغوا وقد أمنوا مكرهم - شركاء الوطن - الى الدعوة لدينهم والجهاد فى سبيله.

وعلى كل حال, فقد أدت محاربة قريش للدعوة الاسلامية الجديدة, ومحاولة منع انتشارها وحصرها فى أضيق نطاق الى عكس ما كانت تهدف اليه. فأعمالها الوحشية والارهابية لقمع المسلمين, ثم تحذير الحجاج فى كل موسم من الاتصال بالرسول (ص) أو الاستماع الى أقواله, جعل هؤلاء القادمين يلتفتون الى هذه الدعوة ولو من باب حب الاستطلاع, ليتعرفوا على صاحبها وأسباب مقاومة قريش لها. وعن طريق هؤلاء الحجاج تناقلت أخبار الدعوة الاسلامية التى حملها الرسول (ص) شرقا وغربا, حتى وصلت الى مسامع الناس خارج مكة المكرمة, وتطايرت أنباؤها الى يثرب — المدينة المنورة.

3 . عقـــد بيعـــة العقبـــة:

قبل عقد بيعة العقبة - العقبة الآولى والثانية - كانت الحالة فى يثرب - المدينة - مضطربة, ولما قدم الآوس الى مكة المكرمة يطلبون محالفة قريش ضد قومهم من الخزرج عام (10من البعثة\ 619م), أتاهم الرسول (ص) ودعاهم الى الاسلام, فقال أحدهم وهو أياس بن معاذ: "هذا والله خير مما جئتم له", ثم عاد وفد الآوس الى يثرب - المدينة - دون أن يعقدوا حلفا مع قريش.[12]

وبينما كان الرسول (ص) يعرض نفسه على قبائل العرب كعادته فى كل موسم, ففى عام (11 من البعثة 620م) لقى عليه الصلاة والسلام عند

---

[12]ابن الآثير, الكامل فى التاريخ, جزء 2, ص. 35, وسيرة ابن هشام, جزء 2, ص. 275بتصـــرف.

العقبة بمنى رهطا من الخزرج – أراد الله بهم خيرا – فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام, وتلا عليهم القران, فلقيت دعوته قبولا منهم. ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين الى بلادهم, وقد امنوا وصدقوا, وأخذوا ينشرون الاسلام بين قومهم حتى فشا فيهم, فلم يبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكر من رسول الله (ص).[13]

وكانت لقاءات الرسول (ص) مع الآوس أولا ثم مع الخزرج ثانيا بمثابة فتح الطريق أمام الدعوة الاسلامية خارج مكة, وذلك عن طريق المفاوضات التي تمت بين الرسول (ص) وبين الآوس والخزرج, والتي انتهت باجراء بيعتي العقبة الآولى والثانية, وهما اللتان هيأتا كل الظروف التي تجعل في يثرب – المدينة – الدولة الاسلامية الآولى.

وهكذا, "حتى اذا كان العام المقبل (12من البعثة\ 621م) وافد الموسم من الآنصار اثنا عشر رجلا, وكان في هذا الوفد امرأة واحدة – فسميت بيعة النساء – كما سميت أيضا بيعة العقبة الآولى, وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب".[14] وكان عبادة بن الصامت أحد أعضاء هذا الوفد يقول: "كنت فيمن حضر العقبة الآولى, وكنا اثني عشر رجلا, فبايعنا رسول الله (ص) على بيعة النساء, وذلك قبل أن تفترض الحرب, على أن لا نشرك بالله شيئا, ولا نسرق, ولا نزني, ولا نقتل أولادنا: فان وفيتم فلكم الجنة, وان غشيتم من ذلك شيئا فأمركم الى الله عز وجل, ان شاء عذب وان شاء غفر[15]!"

"فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله (ص) معهم مصعب بن عمير الى يثرب – المدينة – وأمره أن يقرئهم القران ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين, فكان يسمى المقرئ بالمدينة, وكان منزله على أسعد بن زرارة بن

---

[13]سيرة ابن هشام, جزء 2, ص. 276بتصرف, والكامل في التاريخ, جزء 2, صز 36. ولم يكن الآنصار اسما لهم في الجاهلية, حتى سماهم الله به في الاسلام, وهم بنو الآوس والخزرج.

[14]سيرة ابن هشام, المرجع السابق, ص. 279

[15]سيرة ابن هشام, المرجع السابق, ص. 281, وابن الآثير, المرجع السابق, ص. 36.

عدس, وأقام عنده يدعو الناس الى الاسلام, حتى لم تبق دار من دور الآمصار الا وفيها رجال ونساء مسلمون."[16]

وفى العام المقبل (13من البعثة\ 622م) قدم وفد يثرب – المدينة – الى مكة المكرمة قوامه ثـــلاثة وسبعون رجلا وامرأتان, وأقاموا فى العقبة حتى قابلهم الرسول (ص) ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه, الا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له, وكان أول من تكلم فى تلك المقابلة.[17]

ثم بعد ذلك تكلم الرسول (ص), فتلا القران ودعا الى الله ورغب فى الاسلام, ثم قال:"أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ... ".[18] فقال البراء بن معرور: نعم, والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع أزرنا, فبايعناك يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب, وأهل الحلقة, ورثناها كابرا عن كابر". ولكن اعترض أبو الهيثم بن التيهان كلام البراء قائلا: "يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا, وانا قاطعوها – يعنى اليهود – فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا؟ "فتبسم رسول الله (ص) ثم قال: "بل الدم الدم, والهدم الهدم, أنا منكم وأنتم منى, أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ". قال ابن هشام: "الهدم الهدم, يعنى الحرمة, أى ذمتى ذمتكم, وحرمتى حرمتكم."[19]

وهكذا, فقد اتفق الرسول (ص) معهم على أن يختاروا منهم اثنى عشر نقيبا يمثلون قومهم, حيث قال عليه السلام: "أخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا, تسعة من الخزرج وثلاثة من الآوس".[20] ولقد عرفت هذه البيعة ببيعة

---

[16]سيرة ابن هشام, المرجع السابق, ص. 281وص. 286بتصرف.

[17]المرجع السابق, ص. 290بتصرف, وابن سعد, الطبقات الكبرى, ص. 222, وابن كثير, المرجع السابق, ص. 197رواه

[18]أحمد عن كعب بن مالك وأخرجه فى المسند, جزء 3, ص. 461.

[19]سيرة ابن هشام, المرجع السابق, ص. 291– 292, وابن كثير, المرجع السابق, ص. 199.

[20]سيرة ابن هشام, المرجع السابق, ص. 292

العقبة الثانية أو بيعة الحرب, لآن الرسول (ص) بايعهم على الايمان بالله ورسوله, والطاعة فى المعروف, كما بايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم, وأن يحاربوا معه الآحمر والآسود وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة.[21]

وقصارى القول فقد كانت بيعتا العقبة - الآولى والثانية - تمثلان أساسا لقيام الدولة الاسلامية الآولى بالمدينة, وخصوصا بيعة العقبة الثانية التى كان نصها واضحا يدل على اتجاه الرسول (ص) الى العمل على دفع عدوان خصوم الدين الاسلامى الجديد ولو بالحرب. وليس ذلك الا عملا من أعمال السياسة التى تمارسها الجماعات المنظمة أو الجماعات السياسية.

(ب) مبـــادرة الرســـول (صلعم) فى انشـــاء الدولـــة.

ان أول مقومات النظام السياسى هو وجود الدولة, بل ان كل تنظيم سياسى للجماعة يفترض وجود الدولة, حتى ان البعض يربط بين مدلول السياسة وفكرة الدولة ولا يعترف بصفة الجماعة السياسية بغير الدولة, وما جاء فى الاسلام وورد من نصوص وسيرة أكثر دلالة وأقوى برهنة على لزوم ايجاد الدولة فى الحياة البشرية, وأن هذه الحقيقة يمكن تأكيدها من خلال النظر الى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وسيرته الشريفة.

وان من يراجع التاريخ النبوى يلاحظ - بجلاء - أن الرسول (ص), كان منذ بداية بعثته الشريفة وحياته الرسالية بصدد تأسيس الحكومة واقامة الدولة, وقد تم ذلك فى مرحلتين كانت المرحلة الآولى فى مكة والآخرى فى المدينة.

ففى المرحلة الآولى, قام الرسول (ص) باعداد وبناء الآفراد الصالحين, وتوفير الجماعة المؤمنة عن طريق الاتصالات الخاصة واللقاءات السرية. وبذلك بدأ يعد النواة التى ستقوم عليها الآمة الاسلامية, أى بدأ يبنى الانسان

---

[21] المرجع السابق نفسه, ص. 302بتصرف.

– الفرد والجماعة – على امتداد ثلاثة عشر عاما فى مكة على أساس وحدانية الله تعالى وقدرته وعظمته, وحقيقة البعث والنشور, والحساب والجزاء, والجنة والنار. ويمكن القول بأن الفترة المكية الممتدة خلال هذه المدة كانت بمثابة التمهيد للفترة المدنية من العهد النبوى.

وفى المرحلة الثانية عندما هاجر الرسول (ص) الى المدينة وسنحت له الظروف الملائمة, باشر عليه الصلاة والسلام تأسيس أول حكومة فى دولة اسلامية, وقد بذل فى ذلك أكبر مجهود بعد أن عقد ميثاق الآخوة بين أصحابه من الآنصار والمهاجرين الذين كانوا بمثابة الآعمدة لهذه الدولة الفتية, وأقام مسجدا جعله مركزا لتجمع المسلمين وموضعا لعملياته (ص) ونشاطاته الاجتماعية والسياسية.

ولقد كانت هجرة الرسول (ص) الى المدينة بمثابة اعلان عن قيام أول دولة اسلامية فى الجزيرة العربية, وهى عبارة عن مبادرة مباشرة وتأثير مباشر من الرسول (ص) على هذه المهمة, حيث ظهر فيها مبدأ المسئولية السياسية والاجتماعية ظهورا مميزا عن طريق: الاعداد والتحضير لقيام هذه الدولة بالتفاوض والتعاهد مع أهل يثرب, ثم التنظيم وتأسيس بالدولة الاسلامية الآولى فعلا فى المدينة.

(1) أثر الهجرة فى قيام الدولة الاسلامية.

لقد سبق أن تكلمنا عن اللقاءات والمفاوضات التى تمت بين الرسول (ص) وبين أهل يثرب – الآوس والخزرج – وكانت هذه العملية بمثابة فتح الطريق أمام الدعوة الاسلامية خارج مكة, والتى انتهت بالاتفاقات والمعاهدات المعروفة ببيعة العقبة الآولى والثانية, وهى تعتبر ارهاصات لقيام الدولة الاسلامية الآولى فى يثرب – المدينة – ومن أثر هذه المفاوضات انتشر الاسلام فى تلك الآرض الخصبة الطاهرة بعد هذه البيعة, والتى تعتبر بحق معاهدات دينية سياسية وعسكرية بين صاحب هذه الدعوة وبين أنصاره من أهل يثرب \ المدينة, حيث تضمنت مبدأ المسئولية المشتركة بين الحاكم

والمحكوم, بمعنى أن هذه البيعة كانت المقدمة الآساسية بل الميثاق الفعلى لقيام دولة المدينة الاسلامية.

فكانت هجرة الرسول (ص) بداية للمرحلة الثانية من عهد النبوة, والتى عرفت بالعهد المدنى, وقد جاءت هذه الهجرة بعد أن اشتد البلاء بالمسلمين وصبرهم على اعتداءات قريش فى مكة وايذائهـــا اياهم خلال ثلاثة عشر عاما تقريبا. لذلك كانت: الهجرة فى حقيقة أمرها, تأهبا واستعدادا لنشر الدعوة الاسلامي, والدفاع عنها وخوض المعارك ضد المشركين من موقعهم الجديد فى يثرب التى دخلها الرسول (ص) واستقر فيها, وأصبحت يثرب من ذلك اليوم تعرف بالمدينة.[22]

والى جانب ذلك أيضا فقد حدث نتيجة لهذه الهجرة النبويـــة, ظهور المجتمع الإسلامى بوضوح فى يثرب \ المدينة من حيث كانت لها حدود ومعالم, وهى ما تعرف بالتقيد الاقليمى, وذلك بالاضافة الى ظهور الغاية المشتركة فى جماعة المسلمين لنصرة هذا الدين الجديد بالجهاد, عندما أذن لهم الله تعالى بذلك عن طريق رسول الله (ص) وبوحى من الله سبحانه حيث قال:

"ان الله يدافع عن الذين امنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور* أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ...",[23]

وكذلك ظهور السلطة السياسية متمثلة فى شخص الرسول (ص) عقب هجرته الى يثرب \ المدينة, والتى يحقق قيام مجتمع اسلامى سياسى, وأصبح بناء أول دولة اسلامية فيها أمرا حقيقيا.

وهكذا قامت على أثر هذه الهجرة الدولة الاسلامية, وأصبح لها كيان دولى, وحينئذ مست الحاجة الى التشريع العملى على أتم صورة, فاتجه الوحى الى تنظيم الدولة داخليا وخارجيا. فشرع لهم الآحكام التى تتناول شئونهم

---

[22]ابن خلدون, المقدمة, ص: 283.

[23]سورة الحج, 22\ 38 & 39.

كلها سوا منها ما يتعلق بحياة الفرد أوالجماعة, أو بعلاقة الدولة بغيرها. ولذلك فقد فصل ما أجمل من قواعد الاسلام فى المرحلة الاولى ونزلت التشريعات التى احتاجت اليها الدولة الجديدة فى الشئون العامة والخاصة على السواء, ونزل الوحى بعدد كبير من القواعد العامة التى تستنبط منها التشريعات الجزئية التى لم ينص عليها مباشرة فى القران والسنة النبوية.

وقد تجلى العمل السياسى الذى قام به الرسول (ص) نتيجة الهجرة الى يثرب \ المدينة, والذى يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان أول من أقام دولة اسلامية وبنى قواعدها, أنه كان يباشر أمورا من صميم العمل السياسى والنشاط الادارى الحكومى, ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

1. أن الرسول (ص) قد قام بعملية المؤاخاة بين المسلمين, لتحل هذه المؤاخاة محل ما كان يعرف فى الجاهلية باسم الحلف, وذلك تأكيدا لقوله تعالى: "ان الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين اووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض."[24]

2. وأنه عليه الصلاة والسلام قد عقد بين أصحابه وبين الطوائف والقبائل الآخرى المتواجدة فى يثرب \ المدينة كاليهود وغيرهم, اتفاقية وميثاقا أو معاهدة يعتبر فى الحقيقة أول دستور للدولة الاسلامية,[25] فى ضوء قوله تعالى:

"قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ...".[26]

3. وأنه صلوات الله وسلامه عليه قد جهز الجيوش وبعث البعوث العسكرية والسرايا الى مختلف المناطق فى شبه الجزيرة, وقاتل المشركين

---

[24] سورة الآنفال, 8\27 .

[25] يمكن الرجوع الى نص هذا الدستور كاملا فى "مجموعة الوثائق السياسية ... " , محمد حيدر ابادى, ص: 39 – 47, وسيرة ابن هسام, جزء 3, ص: 31 – 32, والرحيق المختوم, ص: 168.

[26] سورة ال عمران, 3\46 .

وغزاهم وقام بمناورات عسكرية لارهاب الخصوم, وذلك بعد تشريع الجهاد حتى يتمكن المسلمون من الدفاع عى أنفسهم بالقتال والذود عن حياض الاسلام, وذلك تأكيدا لقوله تعالى:

"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير ",[27]

وغيرها من الايات الكثيرة عن مشروعية الجهاد والقتال.

4. وأنه (ص) قد راح يراسل الملوك والآمراء يدعوهم الى الانضواء تحت راية الاسلام والدخول فى ظل دولته والقبول بحكومته الالهية, وقد عقد مع بعضهم المعاهدات, وأقام بعض التحالفات العسكرية والسياسية والمعاهدات الاقتصادية;[28] مما دعم مركزها السياسى فى الداخل. كما بعث السفراء والمندوبين السياسيين الى الملوك والزعماء وأنفذ السفارات الى العالم الخارجى, وكانت هذه السفارات والكتب النبوية عملا بديعا من أعماله الدبلوماسية, بل كانت أول عمل قام به الاسلام فى هذا الميدان.

5. وأنه عليه الصلاة والسلام قد نصب القضاة وعين الولاة, وأعطاهم برامج للادارة والسياسة فأوصاهم فيما أوصاهم بتعليم أحكام الاسلام, ونشر الآخلاق والاداب التى جاء بها الاسلام, وتعليم أحكام القران الكريم, وجباية الضرائبالاسلامية كالزكاة وانفاقها على الفقراء والمعوزين وما شابه ذلك من المصالح العامة, وفصل الخصومات بين الناس وحل مشاكلهم والقضاء على الظلم والطغيان.

وبذلك تم ارساء الآسس الاقتصادية للاسلام التى ترمى الى أن تخلق بين المسلمين جوا من الحب والتعاون والايثار, ووسيلتها لذلك تحقيق العدالة الاجتماعية بين جميع المسلمين والمواطنين فى الدولة الاسلامية الجديدة.

---

[27] سورة الآنفال, 8\ 39.

[28] أبى يعقوب بن جعفر, تاريخ اليعقوبى, جزء 2, ص: 64بتصرف.

(2) كيفيـــة ممارســـة وظائف الدولـــة فى الاســـلام.

ان الاسلام ليس مجرد أدعية خاوية أو طقوس ومراسم فردية يقوم بها كل فرد فى بيته ومعبده, بل هو نظام سياسى ومالى وحقوقى واجتماعى واقتصادى واسع وشامل, وما ورد فى هذه المجالات من قوانين وأحكام تدل بصميم ذاتها على أن مشروعها افترض وجود حاكم أو رئيس يقوم بممارستها وتنفيذها ورعايتها. لآنه ليس من المعقول سن مثل هذه القوانين والآحكام دون وجود قوة مجربة وسلطة تنفيذية تتعهد باجرائها وتتولى تطبيقها, مع العلم بأن سن القوانين والآحكام وحده لا يكفى فى تنظيم الدولة والمجتمعات.

وعقب هجرة الرسول (ص) الى يثرب \ المدينة نشأت الدولة الاسلامية الآولى, وتولى زمام السلطة السياسية فيها, وذلك وفق ما دون فى الوثيقة التى كتبها الرسول (ص) بينه وبيه أهل المدينة, والتى يسميها كثير من الباحثين "دستور المدينة" فأخذت هذه الدولة تباشر ممارسة مهامها التى شملت كل نواحى النشاط السياسى والتنظيمات المعروفة انذاك فى مجالاتها المختلفة - كما وضحناه انفا - حيث نلخصها فيما يلى:

1. فقد أقامت العدالة عن طريق القضاء, ونظمت الدفاع وسياسة الحروب فى الغزوات التى باشرها الرسول (ص) بنفسه أو بواسطة قواد سراياه وبعوثه, وبثت التعليم بين رعاياها ومن انضم الى الدين الجديد - الاسلام الحنيف - خارج المدينة كما حدث فى اليمن والبحرين وغيرهما.

2. ونظمت موارد الدولة المالية بتنظيم الزكاة وطرق جبايتها وفق ظروف العصر, وعقدت المعاهدات مع القبائل والجماعات التى كانت محاربة لها, أو التى اختارت طريق السلم ازاء دعوتها الاسلامية.

3. وأنفذت السفارات الى العالم الخارجى, فوضعت بذلك أساسا للعلاقات الدولية, حين تكون الدولة الاسلامية طرفا منها.

4. ووضعت النواة الآولى للنظام الادارى فى الاسلام, حيث بعث

الرسول (ص) الى القبائل المختلفة التى دخلت فى الاسلام من يقرئها القران, وأما فى المدينة فوضعت نظام الدولة الاسلامية, حيث كان ينيب عن الرسول (ص) عمالا على القبائل الكبيرة والمدن الواسعة من قبله عليه السلام.

5. واستخدمت المسجد مكانا للعبادة كما استخدمته أيضا مركزا للحياة السياسية والاجتاعية والعسكرية, حيث كان الرسول (ص) يستقبل فى المسجد أيضا السفراء والوفود من الدول الآخرى. فكان المسجد بمثابة مبنى الحكومة النبوية بالاضافة الى وظيفته الدينية الآساسية.

6. واختارت عددا من الصحابة ليعاونوا الرسول (ص) كرئيس للحكومة فى الدولة وعرفوا بكتاب الرسول (ص) الذين يعاونونه فى تنظيم شئون الدولة ويمثلون الوظائف القيادية, " وذلك مثل كتاب الوحى, وكتاب الدولة لكتابة الآمور المتعلقة بدولة المدينة وشئونها ", ومنهم من يقوم بدور المستشار كالوزير, حيث كان أبو بكر وعمر بمثابة الوزيرين للرسول (ص), وغيرهم من معاونيه فى مجالات مختلفة.

وعلى هذه الصورة ثبتت دعائم النظام السياسى فى المدينة, ورسخت قدم الدولة الاسلامية الناشئة التى ضمت بعد نحو من عشر سنوات معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية ودخل فى عقيدتها, وانضوى تحت حكومتها سكان هذه المنطقة جميعا تقريبا. وقد مارست هذه الدولة الجديدة السلطات التى تمارسها أية دولة فى العالم وهى سلطات التشريع والقضاء والتنفيذ. لذلك يستشير كبار المهاجرين والآنصار, أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وحمزة وجعفر وابن مسعود وعمار وحذيفة وأبو ذر وغيرهم, ويعمل برأيهم فى المسائل غير الدينية.[29]

وبالرغم من ذلك كله فان: "من الواضح أن هذه التنظيمات التى تهدف الى الاستقرار كانت مرحلية, لآن اعتناق الاسلام والانضمام الى دولة

---

[29] ابن خلدون, المرجع السابق, ص: 206بتصرف.

يؤول الى قبول التوجيهات التى تصدرها السلطة المركزية فى الدولة, لآن طاعة الله والرسول واجب دينى ملازم للاسلام بحكم القران, واذا كان التركيز فى هذه المرحلة المبكرة على اقرار سيادة الدولة وتأمين السلم, فان هذه الآحكام تيسر المجال لادخال تطويرات تالية تصدرها السلطة المركزية, وتراعى فيها مصلحة العموم دون الحصر فى المصالح المحلية المتعددة, كما أنها تسير على هدى مبادئ الاسلام دون الاقتصار على المصالح الشخصية المحدودة التى قد تظهر فيها الآنانية المفرقة".[30]

وهكذا, فقد تكونت القواعد الآساسية التى تحكم سلطات الدولة الاسلامية وطريقة مباشرتها لوظائفها, ابتداء من هذا العهد النبوى وخلال عهود الخلفاء الراشدين. فكانت الآعمال والمواقف التى وقعت فى هذه الحقبة التاريخية هى التى تكون معيار الحكم على ما تلا ذلك العهد من عهود, والآساس النظرى لجميع الاراء والنظريات المتعلقة بحياة المسلمين فى جانبها السياسى ....

ومن المسلم به أن العهد النبوى للدولة الاسلامية لم يشهد ظهور النظريات السياسية الاسلامية فى صورة واضحة, وذلك لآن الحكم كان مفوضا الى الرسول (ص), الآمر الذى جعل مرد الآمور كلها الى الوحى. فاذا كان تصرف الرسول (ص) فى مسألة يقتضى مراجعته فيها, فقد تكفل القران بتوجيهه (ص) الى التصرف الآصح والموقف الآمثل. ولعل أوضح مثال لذلك هو قضية أسرى بدر وتصرف الرسول (ص) معهم بقبول الفداء منهم, عندئذ نزل قول الله تعالى: "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الآرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم",[31] وهو الآمر الذى يتصل بقرار سياسي من الرسول (ص).

---

[30] دز صالح أحمد العلى, دراسات فى الادارة فى العهود الاسلامية الآولى, ص: 94- 95.

[31] سورة الآنفال, 8\ 67 & 68

واذا كانت طبيعة العهد النبوى لا تسمح بظهور نظريات سياسية فيه, فقد كانت الآمور تناقش بين الرسول (ص) وأصحابه, ويبدى كل منهم ما قد يكون مقتنعا به من رأي, ومن ثم فانه يمكن القول بأن هذه المرحلة قد تميزت بوحدة مصدر العمل السياسى الذى يمثل فى النهاية القرارات السياسية التى اتخذها الرسول عليه السلام.

وحقــا أن الفكرة السياسية الاسلامية قد بدأت مع بداية الدعوة الاسلامية نفسها, ولقد كانت تعاليمها تتضمن معانى هذه الفكرة حيث أن عقيدة التوحيد الاسلامى كانت ذا تأثير كبير فى قيام المجتمع الاسلامى والآمة الاسلامية, وتحديد كيانها الاجتماعى والسياسى والآخلاقى والاقتصادى على أساس من محبة الله واشاعة العدل بين الناس, ولكن مجموع المسلمين فى المرحلة اللآولى من هذه الدعوة - المرحلة المكية - لم يشكل مجتمعا سياسيا, وأن قيادتهم المتمثلة فى شخصية الرسول (ص) أيضا لم تكن تمارس رئاسة سياسية فى هذه المرحلة.

ورغم ذلك فانه بعد أن تطورت الجماعة المسلمة - أى بالهجرة والاستقرار فى المدينة - فقد تغيرت الى مجتمع سياسى, يمارس فيه الرسول (ص) السلطة السياسية, فنشأت بذلك أول دولة اسلامية بل أقدمها فى التاريخ الانسانى. فالواقع أن هجرة الرسول (ص) وأصحابه الى المدينة كانت نقطة التحول فى حياة الاسلام, وأساسا لقيام هذه الدولة الاسلامية الاولى فى التاريخ بالمدينة المنورة.

ثانيا: هدايــة الســنة فى تطبيق نظام السياسة الاسلامية:

لم يرد فى السنة النبوية - وكذلك فى القران الكريم - نص يحدد شكل نظام الحكم فى الاسلام ولا هئاته أو مؤسساته, ولم يكن ذلك عن غفلة أو اهمال, وانما كان أمرا مقصودا يستهدف المرونة, بحيث ينشأ فى كل زمان ومكان النظام السياسى والقضائى والادارى وغيره الملائم لظروفه والمناسب لاحتياجاته. فاكتفت نصوص السنة والقران فقط ببيان المبادئ الآساسية التى

تحكم سلوك الراعى والرعية, ووضع دستور للامة يرسم منهجا فى الحياة وغايتها, ويترك لها الوسائل المناسبة لتحقيق ذلك.

وقد تحدثنا سابقا عن كيفية اقامة دولة اسلامية فى المدينة على يد الرسول (ص), وعن ظروف نشأتها ومعالم حياة الآمة الاسلامية فى جوانبها المختلفة – من اجتماعية وسياسية واقتصادية وحربية – والقائمة على التعاليم الالهية والتوجيهات النبوية التى تمثلت فى القران والسنة, لتطبيق نظام السياسة فى تلك الدولة وقام بممارسة العمل السياسى والنشاط الادارى الحكومى فيها.

ومن ثم سوف نعرض فى هذا القسم لهداية السنة النبوية فى تطبيق الآنظمة للتحدث عنها من خلال هذا التطبيق النبوى:

(ا) ارشاد السنة فى تطبيق نظام الحكم.

لقد عرفنا سابقا أن القران الكريم – مصدر أحكام الاسلام الآول – قد أتى فى المجال السياسى أو الشئون الدستورية, ببعض المبادئ العامة والآساسية التى لا يمكن اهمالها فى أى نظام حكم صالح. وتركت التفاصيل والجزئيات دون اشارة اليها فى هذا الكتاب الكريم, حتى تستطيع الآمة الاسلامية أن تصوغ دقائقها وفقا لمقضيات حاجاتها وأهدافها فى كل زمان ومكان.

وهكذا الشأن فى السنة النبوية, حيث أن الرسول (ص) قد طبق هذه المبادئ العامة والآساسية فى نظام الحكم, لكنه طبقها بما يلائم أحوال دولته فى المدينة ومتطلبات العصرالذى وجدت فى هذه الدولة. والى جانب هذا التطبيق وجدت فى خصوص كل مبدأ من هذه المبادئ الدستورية نصوص بعض الآحاديث النبوية التى تماثل ايات القران فى هذا الشأن. وذلك أن القران الكريم والسنة النبوية هما المصدران الآساسيان لجميع أحكام الاسلام فى جميع مجالات الحياة, ومن ثم فان كل ما ورد فيهما من أحكام يعتبر واجب الاتباع فى الدولة الاسلامية, وملزما للمسلمين.

وتعتبر هذه الآحكام العامة أو المبادئ الآساسية قيما عليا ذات أثر كبير فى صياغة التصور الاسلامى للدولة ووظيفتها وخصائص نظام الحكم فيها. وانطلاقا من هذه القيم وتأسيسا عليها تبنى التفاصيل والجزئيات فى نظام هذه الدولة فى اختصاصات السلطات فيها, وفى قيود مبشرة لهذه الاختصاصات. والى هذه القيم الاسلامية يؤدى الجميع فى الدولة الاسلامية واجباتهم وينالون حقوقهم.

وهكذا, فان المبادئ العامة التى أتى بها القران الكريم, وقدمت لها السنة النبوية تفسيرا – قولا وعملا – هى الاطار العام للنظام الحكمى الذى يطبق فى دولة المدينة فى عصر الرسالة, فضلا على اعتبارها الهداية الصالحة لانطلاق المسلمين فيما بعد للاتباع والتأسى بما طبقه الرسول (ص). ويمكن أن نأتى هنا ببعض النماذج لتلك المبادئ العامة التى حددت شكل نظام الحكم الذى قام فى عهد الرسول (ص), ومن أهمها:

1. تنفيذ الشريعــة الالهيــة:

كانت الدولة الاسلامية فى عصر الرسالة تحكم بما أنزل الله وتنفذ كل ما شرعه سبحانه, لآن الاسلام يعنى التسليم بأوامر الله تعالى ونواهيه, واطاعتها والانقياد والاستسلام لله عز وجل. ومن ثم كانت صورة الحكم مقيدة للمؤمنين بالقانون الالهى الذى اتخذ صورتى كتاب الله وسنة رسوله سواء كانت قولا أم عملا, حيث أن الرسول (ص) لا ينطق عن هوى ولا يعمل به.

وهناك كثير من الايات القرانية التى تشير الى هذا المبدأ الذى يتكلم عن سيادة التشريع الالهى وضرورة تنفيذه, والذى قد نفذه الرسول (ص) فعلا خلال حكمه فى المدينة, وهذه عدة نماذج من تلك الايات حيث يقول الله تعالى: "ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون".[32] وقال تعالى: "وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع

---

[32] سورة يوسف, 12\40.

أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ...."[33] فهذه الايات وغيرها كثير تؤكد على أن الحكم لله وحده, واعتبرت من لم يحكم بما أنزل الله كافرا وظالما, وخارجا عن طريق الصواب ومتبعا لهواه.

ولآجل ذلك, فمن الواجب أن تكون الطاعة مخصوصة لله تعالى ولرسوله (ص) ولآولى الآمر من المسلمين, وملزمة للمؤمنين وللمؤمنات كما أمرهم الله بذلك فى مثل قوله تعالى:

"يا أيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الآمر منكم فان تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا".[34] وغيرها كثير من الايات التى توضح ذلك.

وهكذا, لم تخرج السنة النبوية الشريفة أيضا عن معنى هذا المنهج السماوى, فقد كان الرسول (ص) يقرر ويؤكد على العمل بما جاء فى كتاب الله سبحانه وتعالى, حيث يقول عليه الصلاة والسلام:

- " أطيعونى ما كنت بين أظهركم, وعليكم بكتاب الله, أحلوا حلاله, وحرموا حرامه".[35]

- "ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها, وحد حدودا فلا تعتدوها, وحرم أشياء فلا تنتهكوها, وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها".[36]

- "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه".[37]

---

[33] سورة المائدة, 5\49.

[34] سورة النساء, 4\57.

[35] رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أيوب الآنصارى, ورواته ثقات, الترغيب والترهيب, للمنذرى, جزء 1, ص: 80, وصحيح الترغيب والترهيب, للمنذرى, تحقيق: محمد ناصر الدين الآلبانى, ص: 21.

[36] رواه الدارقطنى وغيره عن ثعلبة الخشنى جرثوم بن ناشر, أخرجه الدارقطنى, جزء 4, ص: 184, والحاكم فى المستدرك, جزء 4, ص: 115, وأبو نعيم فى الحلية, جزء 9, ص: 17.

[37] رواه أحمد عن مالك, ذكره مالك فى الموطأ بمعناه, جزء 4, ص: 246, واسناده ضعيف لاعضاله. وأخرجه بلفظ الموطأ نفسه ابن عبد البر فى الجامع, جزء 2, ص: 14 & 110, واسناده ضعيف. وينظر: مفتاح الجنة , للسيوطى, ص: 29

وكل ذلك يعنى أن يكون لما رسمه القران الكريم وما جاءت به السنة الشريفة لتسعد الآمة الاسلامية وتهديها أرادا وجماعات, وذلك بأن الله هو الحاكم الحقيقى للعالمين وأن الحكم له وحده سبحانه, وأن قانونه السماوى والآبدى هو القانون الذى يحكم به. وبذلك تصير السيادة لله وحده, بيده التشريع, وليس لآحد - وان كان نبيا - أن يأمر وينهى من غير أن يكون له سلطان من الله, والنبى لا يتبع الا ما يوحى اليه.

والواضح أن الرسول (ص), قد نفذ كل ما جاء فى القران الكريم من تشريع الهى, وذلك أثناء تسييره للحكم فى الدولة الاسلامية الآولى بالمدينة المنورة, لآن مسئولية الرسول عليه السلام هو التنفيذ والتبليغ لما يوحى اليه, كما قال تعالى:

"ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون".[38] فكان طبيعيا أن يكون ذلك قدوة حسنة وهداية صالحة للآمة الاسلامية جمعاء.

2. **اقامــة نظام الخلافــة:**

كان الرسول (ص) هو اخر رسول يستخلفه الله على الآرض بعد ادم عليه السلام واخوانه من الآنبياء والرسل عليهم السلام, وذلك لآن وظيفته كرسول الله الى الناس كافة هو أن يكون الممثل الآسمى والآمثل لخلافة الله على هذه الآرض, مؤكدا لما بينه الله تعالى فى قوله: "انى جاعل فى الآرض خليفة".[39] وقوله سبحانه أيضا: "وهو الذى جعلكم خلائف الآرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما اتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم".[40]

---

[38] سورة النحل, 16\90.
[39] سورة البقرة, 2\30.
[40] سورة الآنعام, 6\165.

ورغم ذلك فان نظام الخلافة – كما عرفه التاريخ الاسلامى – لم يكن معروفا فى عصر الرسالة, ولكن عندما توفى الرسول (ص) وجد المسلمون أنفسهم محتاجين لاختيار خليفة له, وعندما وقع الاختيار على أبى بكر الصديق ليكون خليفة الرسول, تقدم المسلمون لمبايعته على الخلافة. ثم بدأت معالم نظام الخلافة الاسلامية تأخذ طريقها الى الظهور فى شكل محدود, وبدأت هذه المعالم تتضح رويدا رويدا مع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وتطور المجتمع الاسلامى. وكانت هذه الخلافة محافظة على صورتها المثالية المعبرة عن طبيعة النظرة الاسلامية الى الحكم طوال عصر الخلفاء الراشدين.

وفى الحقيقة أن نظام الخلافة قائم منذ عصر الرسالة فى هذه الصورة المثالية, حيث كان الرسول (ص) على رأس هذه الخلافة. فكأن الرسول (ص) مفوض فى حكم الرعية لآن يحكمها بما أنزل الله عليه من دستور قرانى, ولهذا فهو لا يحتاج الى هيئة تشريعية أو قانونية لكى تضع له هذا الدستور. وذلك لآن كلمة ترسل من السماء تنطوى على دستور الهى يفوق ما يتفق عليه البشر من أنظمة وقوانين لكى يرتدع بها الناس دون جدال حوار.

ولهذا كان نظام الحكم فى الدولة الاسلامية الآولى فى عصر الرسالة نظاما الهيا روحيا, وهو نظام لم يعتمد على بطش حاكم فرد وتسلطه بالقوة الجسدية والجبروت. وأن المسئولية القانونية وسيادتها لا يمكن أن تكون لغير الله وحده, لآن هذه السلطة القانونية انما هى مجمل العقيدة والتشريع الذى وضعه الله لكى ينظم به حياة البشر. فلا يكون الرسول (ص) سوى تطبيق هذه القواعد والآصول التى وضعها المشرع العظيم سبحانه وتعالى على حياة البشر, وبذلك فقد يبرز معنى استخلاف الله على البشر, وكان هذا المعنى يتمثل فى شخصية الرسول (ص) ثم فى شخصية المؤمنين من بعده.

وفيما يتعلق بالسلطة السياسية, فهى تعنى ولاية الرسول على المجتمع لتدبير شئونه, وهذا يتطلب حنكة ودراية وفطنة فى تناول أمور الجماعة, ولا يمكن للنصوص القرانية أن تتسع لجميع الوقائع والآحداث اليومية حتى فى

عصر الرسول وحده, وانما يضرب الله المثل للناس. وهذا يعنى أنه يعطى نموذجا فى واقعة وحادثة معينة لكى يتأسى بها الناس ويندرج على منوالها, وهذا هو عمل سياسى دون خروج على ما أسسه الله من تشريع سماوى.

ويمكن القول أن نظام الحكم النبوى فى الدولة للاسلامية الآولى بالمدينة المنورة, تفرد بأركانه الخاصة عما سواه من أنظمة الحكم الآخرى. وأن وظيفة الرسول (ص) كرئيس للدولة هو المثل الآعلى لخلافة الله تعالى فى الآرض.

وقد وضعت السنة النبوية قاعدة عامة للاستخلاف بحديث الرسول (ص) حيث قال: "ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته, فالآمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته, والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم, والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم, والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه, ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته".[41]

وقد اتضح من خلال هذا الحديث النبوى الشريف أن الامام أو الحاكم أو الخليفة راع ومسئول عن الناس أو جماعته ككل, ثم تدرجت هذه المسئولية فى أفراد هذه الجماعة بحيث تشمل الجميع حتى تبدو الدولة فى الصورة القوية المتماسكة, نتيجة رعاية كل واحد فيها حسب وضعه الاجتماعى, سواء كان حاكما أم رب أسرة أم غير ذلك.

وهناك أحاديث كثيرة مختلفة تؤكد على الجماعة لا بد لها من اختيار رئيس لها يقودها, ولا بد أن يكون للدولة الاسلامية رئيس واحد فقط كما يقرر الرسول (ص) نفسه, ولا بد أن تكون الامارة والرئاسة فقط للرجل دون المرأة, ومن نماذج تلك الآحاديث النبوية هى:

- "ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح الا لم يدخل

---

[41] متفق عليه, روى عن عبد الله بن عمر به مرفوعا, أخرجه البخارى فى مواضع منها, جزء 2, ص: 33-34(كتاب الجمعة, باب الجمعة فى القرى والمدن), ومسلم بشرح النووى, جزء 12, ص: 213(كتاب الامارة, باب فضيلة الآمير العادل وعقوبة الجائر), والترمذى جزء 3, ص: 33, وأبو داود, جزء 2, ص: 180, وأحمد, جزء 2, ص: 5.

معهم الجنة".[42] وحديث: "ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة الا لم يجد رائحة الجنة", وفى رواية: "يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة".[43]"لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة".[44]

"اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما".[45]

ومن خلال نصوص السنة الشريفة السابقة تبين لنا أنه لا بد من اختيار الحاكم أو الخليفة أو الآمير, فواجب الجماعة أن تختار أحدهم يقودها عاملا بكتاب الله المتين بصرف النظر عن لونه وجنسه, وينبغى أن يكون رجلا ليتولى زمام الحكم دون المرأة, ولا يصح أن يكون هناك أكثر من خليفة للجماعة أو الدولة فلا بد من خليفة واحد فقط. وقد وصل ابن خلدون الى نتيجة هامة جدا من وجهة النظر الاسلامية سياسيا وحقوقيا: "أن يكون القائم بأمور المسلمين من قوم أولى عصبية قوية على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم".[46]

3. عقـــد البيعـــة:

البيعة هى صفة أمان وعهد وميثاق, تصون بها الجماعة أو الآمة أمرها وتعطى بها ثمرة قلوب الرعية وروح أفئدتها, لمن يقوم فيهم بما يحفظ عليهم وحدتهم ويصون لهم أمر دينهم, ثم هى واسطة العقد بين الجماعة وحاكمها, يصيبها ما يصيب كلا منهم – اماما ورعية – وينالها ما ينالهم.

---

[42] رواه مسلم عن معقل بن يسار, وأخرجه فى صحيحه بشرح النووى, جزء 12, ص: 215(كتاب الامارة, باب فضيلة الآمير العلدل وعقوبة الجائر), وينظر: منهاج الصالحين ... عز الدين بليق, ص: 437.

[43] متفق عليه, روى عن معقل بن يسار, أخرجه البخارى, المرجع السابق, جزء 9, ص: 115(كتاب الاحكام, باب من استرعى رعية فلم ينصح), ومسلم, المرجع السابق, جزء 12, ص: 214, وينظر : اللؤلؤ والمرجان ... جزء 2, ص: 243.

[44] رواه البخارى والترمذى والنسائى وأحمد عن أبى بكرة, أخرجه البخارى, جزء 9, ص: 100(كتاب الفتن بدون عنوان), والنسائى, جزء 8, ص: 200, وأحمد, جزء 5, ص: 43بلفظ "لن يفلح قوم أسندوا أمرهم الى المرأة".

[45] رواه مسلم عن أبى سعيد الخضرى, وأخرجه فى صحيحه بشرح النووى, جزء 12, ص: 242)كتاب الامارة, باب اذا بويع لخليفتين), والبيهقى فى السنن الكبرى, جزء 8, ص: 144.

[46] د. محمد ضياء الدين الريس, نظريات السياسة الاسلامية, ص: 256.

وعندما نتحدث عن اختيار رئيس الدولة فلا بد من ملاحظة أن الرسول (ص), قد اصطفاه الله تعالى ليجمع فى زمام يده السلطتين الدينية والزمنية. غير أن ممارسته العملية تدلنا على الطريق الذى ينبغى أن يتم اختيار حكام الآمة الاسلامية من بعده, ولتكون ارهاصة لمن يأتون بعده. ولهذا فحين قيامه (ص) بتبليغ الدعوة الاسلامية أخذ يعرض نفسه على الناس, حتى تم توفيق الله له باتمام بيعتى العقبة الآولى والثانية, حيث كانت هذه البيعة تشمل الرجال والنساء على السواء, وكانت هذه البيعة للرسول (ص) من أهل المدينة بمثابة العقد والميثاق بينه وبينهم لمناصرة كل منهم الآخر.

وقد عرفنا سابقا أن القران لم يوضح كيفية اختيار رئيس الدولة أو امامها, بل ترك الآمر مجملا فى البيعة والشورى التى جاءت من خلال الممارسات العملية التى تمت بين الرسول (ص) وبين المؤمنين, وكانت النصوص القرانية التى ذكرت البيعة تؤكد ما قام به الرسول (ص), وتجعل للبيعة أهمية خاصة, ومن تلك النصوص قوله سبحانه وتعالى:

"لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا".[47]

"فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم".[48]

وقد اتضحت من خلال تلك الآيات السابقة أهمية البيعة ودورها فى الممارسات العملية التى قام بها الرسول (ص) فى مواقف عديدة, وذلك لنشر الدعوة الاسلامية والاعتراف به كرسول وبالتالى كمؤسس وحاكم للدولة الاسلامية. وقد تعتبر هذه البيعة قضية موضوعية باعتبارها احدى الآركان الهامة فى اختيار الحاكم المسلم فيما بعد والتى اتخذت شكل لأهل الحل والعقد.

وهكذا, فقد عملت السنة النبوية على ايضاح النقاط المتعلقة بكيفية

---

[47] سورة الفتح, 48\18.

[48] سورة التوبة, 9\111.

أداء البيعة, وشروطها, وعلى من تجب هذه البيعة, حيث أنها ظهرت من خلال الممارسات العملية للبيعة التى تتم بين الرسول (ص) وبين المؤمنين, وحيث كانوا يبايعون الرسول الكريم على الايمان بالله والتزام أوامره وتجنب نواهيه, وعلى السمع والطاعة فيما يستطيعون أداءه سواء أحبوا ذلك أم كرهوا, وعلى عمل وقول الحق والنصح فيما بينهم حيثما كانوا, لا يخشون فى الله لومة لائم, وعلى أمور أخرى كثيرة تتعلق بمصالح المسلمين جميعا. وهنال أمثلة كثيرة متوفرة من أحاديث الرسول (ص) تدل على ذلك ومنها قوله عليه السلام:

"من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له, ومن مات وليس فى عنقه بيعة, مات ميتة جاهلية".[49] "كانت بنو اسرائيل تسوسهم الآنبياء, كلما هلك نبى خلفه نبى, وانه لا نبى بعدى, وستكون خلفاء فتكثر, قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوفوا ببيعة الآولى فالآول, واعطوهم حقهم, فان الله سائلهم عما استرعاهم".[50]

وانطلاقا من هذا المنظور اشترط الرسول (ص) على كل من يؤدى البيعة أن يؤديها بغرض للاخلاص للحاكم, ولن يتحقق هذا الاخلاص الا اذا كان الدافع هو الادراك العى السليم, بأن هذا الحاكم سيعمل على تحقيق سلامة وخير المجتمع. فحذر الرسول (ص) المؤمنين عند اختيارهم لمن يتولى أمرهم أن يختاروا الآصلح للآمة الاسلامية. وذلك كما جاء فى حديثه (ص) حيث يقول: "من استعمل رجلا من عصابة وفى تلك العصابة من هو أرضى لله منه, فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين".[51]

---

[49] رواه مسلم عن عبدالله بن عمر وأخرجه فى صحيحه بشرح النووى, جزء 12, ص: 240(كتاب الامارة, باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن...), وينظر: عز الدين بليق, الملرجع السابق, ص: 446.

[50] متفق عليه, روى عن أبى هريرة, أخرجه البخارى, جزء 4, ص: 326(كتاب الآنبياء عليهم الصلاة والسلام, باب ما ذكر عن بنى اسراءئل), ومسلم, المرجع السابق, ص: 231(كتاب الامارة, باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الآول فالآول).

[51] رواه الحاكم عن ابن عباس, وأخرجه فى المستدرك, جزء 4, ص: 95.

والى جانب ذلك فقد أوضح الرسول (ص) الدور الايجابى للآمة الاسلامية فى التنظيم السياسى, حيث أكد على أن دور الآمة الاسلامية فى التشؤيع الاسلامى لا ينتهى بالبيعة ولا يحدد بالطاعة فقط, وانما هى مسئولة عن تبصير الحاكم بمواطن ضعفه ونواحى القصور فى سياسته. حيث يقول عليه الصلاة والسلام: "ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه, وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه, والمعصوم من عصم الله", وفى رواية: "ما استخلف خليفة الا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه..."[52] وغيره من الآحاديث الآخرى كثيرة فى هذا المجال.

وعلى هذا يتبين لنا عمل الرسول (ص) وهديه الذى حدد دور الآمة الاسلامية فى تبصير من يتولى أمرها, ودوره بالنسبة لها ودورها بالنسبة له. وبذلك تتضح ضرورة البيعة وأهميتها التى تستوجب الحرص فى اختيار من يبايعونه, حتى لا يهلكوا من امام جائر أو حاكم غاش نتيجة سوء اختيارهم.

(ب) ارشاد السنة فى تطبيق سياسة داخليـــة.

كانت هداية السنة النبوية فى سياسة الدولة الداخلية تأتى من خلال الممارسات العملية والتوجيهات القولية للرسول (ص), وذلك بعد أن أصبح للمسلمين دولة بالمدينة يؤأسها الرسول (ص) كرئيس لهذه الدولة, حيث كان يشرع فى كتابة الصحيفة المشهورة التى عرفت بدستور المدينة, ونظم من خلاله تنظيما وجهازا اداريا.

واذا نظرنا الى ممارسات الرسول (ص) العملية عن سياسته الداخلية أثناء حكمه فى الدولة الاسلامية الآولى بالمدينة, تبين لنا أن الاسلام قد نظم شئون الحياة من الناحيتين: الدينية والدنيوية معا.

فكان قيام الحكومة النبوية فى المدينة المنورة قد ترتب على اثار بعيدة

---

[52] رواه البخارى عن أبى يعيد وأبى هريرة , وأخرجه فى صحيحه, جزء 7, ص: 239, وأبو داود فى سننه من حديث أبى مريم الآزدى, جزء 2, ص: 22.

المدى فى الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغيرها, وأن دعوة الرسول (ص) الاسلامية قد أدت الى ازالة الوثنية, والى عبادة الله الواحد الآحد هو رب العالمين. بل وجد الآمان والاستقرار فى دعوته (ص) وتمكن من وضع النواة الآولى للحكومة الاسلامية فى نظام كامل, يشمل الدين والدولة معا فى شكل جديد يحدد سياسته الداخلية المتمثلة فى النظم المختلفة.

وبعد أن قامت هذه الحكومة واستقرت دعوته (ص) فيها, أصبحت المدينة مركز التحول فى تنظيمه السياسى والاجتماعى, حيث أتيحت للجماعة الاسلامية أن تنتقل من مرحلة المبادئ الى مرحلة التطبيق, مما جعل الحياة الجديدة فيها تتطلب كثيرا من التنظيمات والتشريعات, وأن جوها أكثر ملائمة للتشريع ولاظهار النواحى السياسية والاجتماعية والادارية فى شكل جديد مثل النظام الاجتماعى, والنظام الاقتصادى والنظام المالى وغير ذلك:

1. تقويم النظام الاجتماعى:

كان الرسول (ص) منذ المرحلة الآولى من دعوته قد وجه كل عنايته. الى ايجاد النظام الاجتماعى السليم – مسترشدا بالهدى الالهى – الذى يعشق المثل الآعلى, عاملا على تحقيقها فى اطار من التعاون والتضامن بين أفراد المجتمع الاسلامى حتى ينعم الجميع بالآمن والرفاهية. وكانت أهم الآثار الاجتماعية التى ترتبت على قيام الحكومة النبوية وتطبيق سياسته الداخلية هى تحطيم الفوارق الطبقية, والتدرج فى محاربة الرق, واعلاء شأن المرأة, والغاء طبيعة المسكرات وغيرها من الآفات الاجتماعية.

والقاعدة الآساسية التى اعتمد عليها الرسول (ص) عند تطبيق النظام الاجتماعى – من خلال أقواله وأفعاله – هى قاعدة المساواة بين النلس أجمعين, حيث لا تفاضل بينهم الا بالتقوى. ولهذا قام الرسول بتحريم تجارة الرقيق, وعمل على تحريرهم مقرا لكل انسان حق الحرية, محرما استرقاق الحر دون سبب مشروع وغالبا ما يكون بعد الآسر فى الحرب,[53] وانسجاما مع

[53] محمد الشوكانى, نيل الآوطار شرح منتقى الآخبار, جزء 8, ص: 4.

التعاليم الاسلامية التى تكرم الانسان. أقر الاسلام وأثبت الرسول (ص) للمرأة بأهليتها فى الحقوق المدنية والمالية وجعلها متساوية للرجل فى المجال الدينى والانسانى والاجتماعى, وبلغ من تكريمها ما لم يبلغه تشريع اجتماعى فى القديم ولا فى الحديث.[54]

وقد عالج الرسول (ص) - مطبقا تعاليم الوحى الالهى - مسألة ادمان المسكرات بأسلوب التدرج وبالحكمة والموعظة الحسنة, فأثر أول الآمر أن يقر ببعض منافع الخمر الى جانب مضارها, موجها الآنظار الى غلبة الاثم على النفع حيث قال تعالى: "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما...".[55] ثم جاءت الخطوة الثانية بمنع الصلاة عند السكران حيث قال تعالى:"يا أيها الذين أمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون...".[56] ثم جاءت الحالة الحاسمة بتحريم هذه الآفة اطلاقا حيث قال تعالى: "يا أيها الذين أمنوا انما الخمر والميسر والآنصاب والآزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون".[57]

وكذلك أن الرسول (ص) قد أرسى قاعدة عظمى تساعد المؤمنين أفرادا وجماعات على التكافل التام فى تحمل التبعات, وهى قاعدة الآمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وهذه القاعدة توضح مدى المسئولية الاجتماعية التى يتحمل الفرد أعباءها دور الآمر بالمعروف ودور الحرب كل ضلال, وبذلك يكون هذا التحمل أساسا يعول عليه فى الفرقة بين المؤمنين والمنافقين فى المجتمع الاسلامى.

---

[54] محمد رشيد رضا, الوحى المحمدى, ص: 145.
[55] سورة البقرة, 2\219 .
[56] سورة النساء, 43.
[57] سورة المائدة, 5\90 - 91.

فان المؤمنين جميعا يتحملون كل تبعة ويخوضون معا كل معركة كقوله تعالى: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم".[58]

وهكذا, فقد جاء الاسلام بأسلوب التدرج وطبقه الرسول (ص) فى ارساء النظام الاجتماعى, والقيام بالاصلاح الآخلاقى والتربوى بما يكفل لمجتمعه الاستقرار والآمن, ويحصنه من عوامل الفساد والاضطراب التى تعترى أى مجتمع أخر, وذلك بالاهتمام بحياة الآسرة ونظام الزواج والطلاق والميراث فيها, وتبدو من خلالها صورة كاملة وواضحة للحياة الاجتماعية فى حياة الآمة الاسلامية حتى تكون قدوة صالحة الآجيال القادمة.

2. ضبط النظام الاقتصـــادى:

قد اعتنى الرسول (ص) بهذا المجال عناية كبيرة, وقام باجراء عدة الآنشطة الاقتصادية المتمثلة فى الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها.

وخير مثال فى ذلك أن الرسول (ص) يدعو الناس عامة والمؤمنين على وجه الخصوص الى الزاعة والحث على القيام باحياء الآرض, كما جاء فى حديثه (ص) أنه قال: "ما من مسلم يغرس غرسا, أو يزرع زرعا, فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة الا كان له صدقة",[59] وقال أيضا: "من كانت له أرض ليزرعها, فان لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم ولا يؤجره عليها".[60] وقد حمل هذا المؤمنين على الاعتناء بأرضهم الزراعية وقاموا باستخراج خيراتها ومحصولاتها.

---

[58] سورة التوبة, 9\71.

[59] رواه مسلم عن جابر بن عبدالله, وأخرجه فى صحيحه, المرجع السابق, جزء 10, ص: 215(كتاب المساقاة, باب فضل الزرع والغرس), والبخارى فى صحيحه, جزء 5, ص: 3(كتاب الحرث والمزارعة, باب فضل الزرع والغرس), وجزء 10, ص: 438(كتاب الآدب, باب رحمة الناس والبهائم).

[60] روى عن جابر بن عبدالله, أخرجه مسلم فى صحيحه, المرجع السابق, ص: 197(كتاب البيوت باب كراء الآرض), وينظر: ابن قيم الجوزية, تهذيب ابن القيم لسنن أبى داود, جزء 5, ص: 56- 57

وكذلك أن الرسول (ص) يدعو الى الاشتغال بالتجارة دعوته الى الزراعة, وقد عمل الرسول عليه السلام نفسه فى التجارة. ومن الواضح أن المجال الاقتصادى منظم فى القران تنظيما دقيقا حيث قال تعالى: "... وأحل الله البيع وحرم الربا ..."،[61] وقال سبحانه: "... وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون".[62] وبهذا يتضح لنا أن الاسلام يشجع التجارة الخالية من الربا كما يشيد برؤوس الآموال ما دامت حلالا, ويدعو الله تعالى أيضا الى القرض الحسن فى قوله: "من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضهافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون".[63]

والمعروف أن معظم الصحابة رضوان الله عليهم قد اشتغلوا فى التجارة وعلى رأسهم أبو بكر وعثمان بن عفان الذى كان يمل أيضا بزارا,[64] وتوجد أيضا مهنة الصراف الذى يبيع الذهب والفضة, وكذلك بائع السلاح والرماح وهو نوفل بن الحرث بن عبدالمطلب.[65] وقد تطلب هذا من الرسول (ص) انشاء جهاز خاص لمراقبة الآسواق منعا للغش, وأول من عينه فى سوق المدينة عمر بن الخطاب, وفى سوق مكة سعيد بن العاص بعد فتح مكة,[66] وقد عرف هذا الجهاز باسم الحسبة.

وفى الحقيقة أن العمل فى الاسلام لا يقتصر على تنفيذ أحكام الشريعة فحسب, بل يشتمل جميع أصناف وأنواع العمل الدنيوى, وجميع ضروب الصناعة والتصنيع. فلا ينقص أجر أحد ولو طلب الدنيا وزينتها بل ينبغى عليه أن يوفى اليه عمله كاملا غير منقوص حيث قال تعالى: "وأن ليس للانسان الا ما سعى* وأن سعيه سوف يرى* ثم يجزاه الجزاء الآوفى".[67]

---

[61] سورة البقرة, 2\275.
[62] سورة البقرة, 2\279.
[63] سورة البقرة, 2\245.
[64] عبدالحى الكتانى, التراتيب الاداريةوالعمالات والصناعات والمتاجرة ... , جزء 2, ص: 2.
[65] ابن سعد, الطبقات الكبرى, جزء 4, ص: 31.
[66] عبد الحى الكتانى, المرجع السابق, ص: 284.
[67] سورة النجم, 53\39 - 41.

والى جانب ذلك فهناك أيضا أحاديث كثيرة فى مجال العمل والتصنيع تحث على ذلك, ومنها قول الرسول (ص): "لآن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره, فيبيعها, فيكف الله بها وجهه, خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه",[68] وقوله كذلك: "قال الله عز وجل: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بى ثم عذر, ورجل باع حرا فأكل ثمنه, ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه و لم يعطه أجره",[69] وغيرها من الآحاديث المتوفرة.

وكان طبيعيا أن لهذه التعاليم الاسلامية فى مفهوم العمل أثرها الواضح فى نفوس المسلمين,فأقبلوا على أنواع الصناعات يتقنونها محاولين التفوق على غيرهم من الشعوب. ولا عجب أن يهتم المسلمون الآوائل عهد النبوة بصناعة الآصلحة والآلات العسكرية كالسيوف والرماح والنبال والدروع وغيرها, لآن حروبهم المتوالية مع المشركين كانت تفرض عليهم منافسة القرشيين فى الصناعات العسكرية, كما تعلم المسلمون وضع المنجنيق: "وأن الرسول (ص) أول من رمى فى الاسلام بالمنجنيق, حيث رمى أهل الطائف".[70]

3. تثبيـــت النظام المـــالى:

قد بين الرسول (ص) أن أكثر مبادئ النظام المالى مستمدة من القران الكريم, وجرى العمل فى العهد النبوى منذ هجرة الرسول (ص) الى المدينة, حيث أرسى قواعد وأسس الدولة الاسلامية الآولى فيها, ثم تبعها الخلفاء المسلمون الذين جاءوا من بعده فى تطبيق هذه المبادئ المرسومة من قبل الرسول (ص).

---

[68] رواه البخارى عن الزبير بن العوام, وأخرجه فى مواضع منها, جزء 3, ص: 335(كتاب الزكاة, باب الاستعفاف عن المسألة), وجزء 4, ص: 304(كتاب البيوع, باب كسب الرجل وعمله بيده). ومسلم بشرح النووى, جزء 7, ص: 132(كتاب الزكاة, باب كراهة المسألة للناس).

[69] رواه البخارى عن أبى هريرة, وأخرجه فى صحيحه, جزء 4, ص: 417(كتاب البيوع, باب اثم من باع حرا, وص :447(كتاب الاجارة, باب اثم من منع أجر الآجير).

[70] ابن هشام, السيرة النبوية, جزء 5, ص: 155, ودز حسن ابراهيم حسن, النظم الاسلامية ...., ص: 166.

وأن المسلمين بعد هجرتهم الى المدينة قد دعوا الى الجهاد والحرب فى سبيل الله دفاعا عن عقيدتعم ودينهم ومدينتهم, حتى كادت الغنائم تشكل فى البداية أكثر مواردهم, ووجد الرسول (ص) فى هذه الغنائم المصدر الآول لمالية الدولة التى نظمها طبقا لمبادئ للاسلام التى أتى بها القران, والتى عمل بمقتضاها النظام المالى فى هذه الدولة. ورغم ذلك فان أهم ايرادات الدولة النبوية هى: الزكاة, والخراج, والفئ, والغنيمة, والجزية وفيها جميعا فى معنى الضريبة.

فأما الزكاة: فهى أول ضريبة فى الاسلام فرضت على الآغنياء والقادرين من المسلمين, وعرفت أيضا بالصدقة. وتصرف هذه الزكاة على الفقراء وغيرهم من الآصناف, قال تعالى: "... والذين فى أموالهم حق معلوم* للسائل والمحروم",[71] وقال سبحانه: "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم".[72]

وأما مقادير الزكاة وتحديداتها فقد وضعها الرسول (ص) والتى عرفت بالسنة النبوية لا بنص القران, ومن خلال هذا المصدر - السنة النبوية - قد تبين لنا أن الزكاة على أنواع وتنقسم الى ضربين:[73] "ظاهرة وهى ما لا يمكن اخفاؤه, مثل زكاة على الزرع والثمار, وزكاة على المواشى والآنعام. وأخرى باطنة وهى ما أمكن اخفاؤه, مثل زكاة على عروض التجارة, وزكاة على الذهب والفضة". وأما مصاريفها فقد ذكرها الله تعالى فى قوله: "انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم".[74]

وأما الخراج: فهو ما وضع على رقاب الآرضين من حقوق تؤدى عنها, وهو المقدار المفروض على الآرض والذى وقعت عليها الضريبة أداء لحق من

---

[71] سورة المعارج, 70\24 - 25.

[72] سورة التوبة, 9\103.

[73] أبى يعلى الفراء الحنبلى, الآحكام السلطانية, ص: 115.

[74] سورة التوبة, 9\60.

الحقوق, وهوالذى يؤخذ عن الآرض التى تم فتحها بمعرفة المسلمين عنوة وحربا, أو يؤخذ من الآرض التى أفاء الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوها بخراج يؤدونه, كما قال تعالى: "... أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين".[75]

وأما الفئ: فهو المال الذى أصابه المسلمون عفوا دون قتال, ويوزعه على جميع المسلمين دون تخميس كقوله تعالى: "... ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى ولليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الآغنياء منكم ...".[76]

وأما الغنيمة: "فهى من أموال الكفار ظفر المؤمنون به على وجه الغلبة والقهـــر",[77] وتقسم الغنيمة الى خمسة أخماس كما فى قوله تعالى: "واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ...".[78]

وأما الجزية: "فهى مبلـــغ من المال توضع على الرؤوس,[79] وتسقط بالاسلام", أى أنها وضعت على الذميين كقوله تعالى: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".[80]

ولقد ترتب على هذه الايرادات للدولة الاسلامية هناك نوع أخر من النظام الذى طبقه الرسول (ص) فى عهده, وسار على نهجه الخلفاء من بعده, وهو نظام بيت المال أو ديوان الخراج.

---

[75] سورة المؤمنون, 23\72 .

[76] سورة الحشر, 59\7.

[77] الماوردى, الآحكام السلطانية, ص: 121, وابى يعلى الفراء الحنبلى, المرجع السابق, ص: 136, والامام الشافعى, الآم, جزء 4, ص: 64.

[78] سورة الآنفال, 8\41 .

[79] ابن القيم, تحقيق دز الصبحى الصالح, أحكام أهل الذمة ... , ص: 22.

[80] سورة التوبة, 9\29 .

والخلاصة من ذلك كله أن بيت المال قد عرف فى الحضارة الاسلامية منذ العصر النبوى ويشرف عليه الرسول (ص) بنفسه, وأوجد له من العاملين لمساعدته تبعا لنوع الضريبة التى كان يقوم بتحصيلها. ومن هؤلاء العملين:[81] عبدالله بن كعب بن عمرو بن عوف, وأبو عبيدة بن الجراح, ومعاذ بن جبل, وحرب بن عبدالله بن عمر الثقفى, وعبدالله بن رواحة, وحـذيفة بن اليمان, والزبير بن العوام, وجهم بن الصلت وغيرهم.

ومن ثم كان ترتيب الوظائف فى بيت المال قائما نتيجة استقرار دولة المدينة فى عهد الرسول (ص), ونتيجة الحصول على المغانم من الآموال والآرضين لانتصار المسلمين على أعدائهم فكانت هى المصدر الرئيسى لايراد الدولة. وقد تطور هذا النظام بعد أن توسعت الدولة الاسلامية فى العصور التالية, خصوصا فى أيام أهير المؤمنين عمر بن الخطاب والخلفاء المسلمين من بعده فى الدولة الآموية والدولة العباسية.

ومن هذا كله يتضح لنا أن نظام الحكم الاسلامى فى العصر النبوى, وما وضعه الرسول (ص) من تطبيقات وممارسات عملية أثناء حكمه لدولة المدينة, يعتبر ارهاصات لمن يأتون من بعده لارساء الحكم الاسلامى طبقا للقران والسنة النبوية. وكان هذا النظام الذى جاء به الرسول (ص), نظاما متفردا ومتميزا عن كل الآنظمة السياسية الوضعية التى نجد فيها الانسان يظلم أخاه الانسان, كما أن غايته فى الحكم حفظ الدين وحراسته, وسياسة أمور الآمة طبقا لشريعة الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

---

[81] د.محمد ضياء الدين الريس, الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية, ص: 8, وعبد الحى الكتانى, المرجع السابق, ص: 222,محمد كردى على, الادارة الاسلامية ... ص: 12.

الخـــلاصـــة:

ان تأثـــر الحيـــاة الســـياســـية بالســـنة النبويـــة, قـــد حـــدث منـــذ حيـــاة الجيـــل الآول مـــن الآمـــة الاســـلاميـــة والـــذى ســـجل حقيقتـــه تاريـــخ الاســـلام, فقـــد كانـــت الآجيـــال التاليـــة والتابعـــة متأثـــرة كلهـــا بالدفعـــة الهائلـــة التـــى أحدثهـــا الجيـــل الآول, وهـــى ما زالـــت مســـتمرة فـــى حركـــة الحيـــاة الفكـــرة الاســـلاميـــة, لا فـــى داخـــل العالـــم الاســـلامـــى وحـــده ولـــكن فـــى الآرض كلهـــا علـــى اتســـاعهـــا.

وبذلـــك, فأن الفكـــرة الســـياســـية الاســـلامية قـــد بـــدأت مع بدايـــة الدعـــوة الاســـلامية نفســـها, ولقد كانـــت تعاليمهـــا تتضمـــن معانـــى هـــذه الفكـــرة, حيـــث أن عقيـــدة التوحيـــد الاســـلامى كانـــت ذا تأثيـــر كبيـــر فـــى قيـــام المجتمـــع الاســـلامى والآمـــة الاســـلامية, وتحديـــد كيانهـــا الاجتماعـــى والســـياسى والآخلاقـــى والاقتصـــادى علـــى أســـاس مـــن محبـــة اللـــه واشـــاعة العـــدل بيـــن النـــاس.

فان أول مقومـــات النظـــام الســـياســـي هـــو وجـــود الدولـــة, وكانـــت هجـــرة الرســـول (ص) الـــى المدينـــة بمثابـــة اعـــلان عن قيـــام أول دولـــة اســـلامية فى الجزيـــرة العربيـــة. وهـــى عبـــارة عن مبـــادرة مباشـــرة وتأثيـــر مباشـــر من الرســـول (ص) على هـــذه المهمـــة, حيـــث ظهـــر فيهـــا مبـــدأ المســـئولية الســـياسية والاجتماعيـــة ظهـــورا مميـــزا, وكان يباشـــر أمورا من صميـــم العمـــل الســـياسى والنشـــاط الادارى الحكومـــى, وممارســـة مهامـــه التى شـــملت كل نواحـــى النشـــاط الســـياسى والتنظيمات المعروفـــة أنـــذاك فى مجالاتهـــا المختلفـــة.